الوجودية والاسلام

بقلم الأستاذ محمد لبيب البوهى

عرض وتحليل سعيد حمزه مكرم المحامى

فى أيامنا هذه يمر العالم العربى بخاصة، والعالم الإسلامى بعامة، بمرحلة تاريخية حاسمة تدعو إلى اليقظة والوعى والوقوف فى وجه كل محاولة خبيثة تريد أن تنفذ إلى صفوفنا وإلى أرواحنا لتعيث فيها فسادا وتمزيقا وتفرقة .

ولعل دور أصحاب الأقلام المخلصة فى التعبئة الروحية لا يقل بل قد يزيد جلالا وتأثيرا عن القوى المادية فى كسب المعركة ضد الاستعمار والصهيونية والشعوبيه .

وبهذا الإيمان بدور الكلمة الطيبة ينزل الأستاذ محمد لبيب البوهى ميدان المعركة بكتابه هذا : الوجودية والإسلام .

وتحت عنوان : « أضواء على الوجودية » يأخذ الأستاذ البوهى فى شرح سريع لمنهج الفلسفة التقليدية أو المثالية فى تصورها لمثل كاملة سابقة الوجود ، فعندها (أن وجود الشىء دليل على وجود مثالى تصورى سابق عليه) ومن هنا يبدأ الفكر الإنسانى رحلته المباركة فى البحث عن وجود الله (إذ أن وجود الصورة يقتضى وجود المصور ، لأنه هو الذى ينشىء الكائن على هذه الصورة التى وضعها) ومن هنا أيضا ينطلق الإنسان إلى هدفه الكبير فلا يفتأ يجاهد نفسه وأهواءه عساه (يصبح مطابقا للصورة الإنسانية المثالية التى صور الله عليها الانسان الكامل) .

ثم يعرج المؤلف بعد ذلك على الفلسفة الوجودية ليستطلع رأيها

فى هذا التصور فيجد انها تؤمن بعكس ذلك تماماً (فهى لاترى أن هناك صورة مثالية سابقة على الوجود) وإذن (فالوجودية لا تعارض الفلسفة الهادفة فحسب حين تنفى وجود صورة مثالية للإنسان يجب عليه تحقيقها ليقترب من الكمال المطلق بل إنها تعارض أيضا الأديان السماوية وغير السماوية على الإطلاق وهكذا يجد الوجودى نفسه — وقد انفلت من عقال التقاليد والاعراف والأديان — إنسانا منبت الصلة بماضيه وبما حوله من الوجود العام وعليه هو أن يحدد وجهته ويختار طريقه ، بل بمعنى أوضح له أن يحقق وجوده ويؤكد ذاته بكل ما تزين له اهواؤه ونزواته من أساليب لايحترم مجتمعا ولا يرجو وقارا لخلق أودين لأنه ليس مسئولا أمام كل أولئك . بل هو يحمل هذه المسئولية تجاه ذاته (ومن ثم فالوجودى فى قلق دائم وحيرة لا تنتهى لأنه هو الوحيد المسئول عما يؤول إليه أمره) إن عليه وحده أن يسير لا يستشير دليلا ولا يأنس إلى رفيق ولا يعرف له أيضاً وجهة أو غاية . . كل الذى يعرفه أنه (موجود بلا رابطة بغير ذاته) وهو لا يعصى لانطلاقات وجوده هذا أمراً بل يجد فى هذه العبودية ما يؤكد وجوده ويحقق ذاته ثم هو لا يعنيه بعد ذلك فى شىء أن يسوقه نزوعه إلى عمل إيجابى أو سلبى إلى هدم أو بناء .. إلى إيمان أو إلحاد إلى شىء أو لا شىء !! فكل هذه سفاسف يجب ألا يعكر بها الوجودى صفو وجوده ! ! ويعلق الأستاذ البوهى على مثل هذا الوضع فيقول (ويبدو أن الفرد الوجودى هو لا وجودى بالنسبة للحياة ذاتها ذلك أنه خارج على نظمها ومقدساتها فهو ليس منها وقد يكون حربا عليها فهو لايبالى مثلها ولا يهمه مصيرها ، فهو فى حالة عدم وجود معنوى أى لاوجودى).

وفى فصول (الوجودية والعقيدة الدينية) ينفى المؤلف عن حديثه فطنة الرجعية بل هو يرى أن من حق الإسلام كدين أصيل فى هذه المنطقة من العالم أن يتحقق من شخصية الإنكار الواردة عليه) ومن حقه أيضا (أن يكشف عما فى هذه الواردات من حق أوزيف) .

والوجودية بدورها كوارد فكرى فكرى أجنبى يجب أن توضع تحت المجهر وأن نزنها بميزان قيمنا الأخلاقية والدينية ومن حقنا إذن أن نتساءل

(هل هى فلسفة إيجابية وغذاء فكرى وأين هذه الوجودية من الإسلام وأين هو منها !)

إن الوجودية دعوة إلى التحلل من قيود المجتمع أيا كانت هذه القيود اخلاقية أم دينية ليفزع الإنسان إلى ذاته يحققها ويؤكد وجودها بمعاناة تجارب الحياة وممارسة لذاتها بمجرد أن يلح أية إشارة باطنية أو أى نزوع داخلى فهو دائماً يلهث وراء نزواته وأهوائه ، ومعنى هذا أن الوجودية فلسفة هروبية لاتقدر مسئولية الحياة فى مجتمع تواضع على تقاليد معينة وآمن بقيم ثابتة .. هى فرار من مسئوليات البناء الجماعى لحياة إنسانية أفضل .

ولعل من حسن حظ الوجودية أنها تجد فى بعض الأحيان من أحداث الحياة ما يهيء لها أن تبيض وتفرخ ؛ فهذه الحروب الشاملة بويلاتها التى تزعزع فى أعماق الإنسان قيمه الثابتة فى الحياة تفسح المجال للمبادىء الهدامة والنزعات الحسية والهروبية كالوجودية ويكون لها حينئذ بريق يجتذب الشباب الذى اهتز يقينه بالمبادىء والمثل والأهداف .

وينظر المؤلف إلى الوجودية فيراها (كلمة مرنة يمكن أن تتسع لأفكار كثيرة بينما يرى فى الإسلام وجودية من نوع آخر . . وجودية محلقة تجمع فى وئام وتكامل فى صعيد واحد بين الفرد بدوافعه المهذبة القويمة والمجموع بأهدافه الإيجابية البناءة . . إنه لا يصادر حرية الإنسان فى تحقيق دوافعه النفسية بشرط ألا تعوق دوافع الآخرين . . يجب أن يتحقق وجودى إلى جانب وجودك ، إلى جانب وجود الآخر . . لكل إنسان فى هذه الحياة دوافعه النفسية وحتى لا تتنافر هذه الدوافع حين تنطلق إلى اجراءات عملية على مسرح الحياة يجب أن تتناولها لمسات قادرة على تهذيبها وتقويمها وليس أقوى من الدين على تطهير دوافع النفس وتصعيدها إلى الكمال المطلق .. إلى الله . . (فالإسلام يحدد للإنسان معالم وجوده مع نفسه ومع الناس ومع وطنه :

فوجوديته من حيث هو فرد تلزمه أن يكون فردا مثالياً متحليا بالفضائل

ووجوديته من حيث هو رب أسرة أو عضو منها تحدد له واجباته العائلية التى لا يتحقق وجوده العائلى إلا بها .

انتدبه منه الله فى أول الأمر ألقى بالتحية راضيا للمتخلفين بعده على الأرض ثم انحنى لهم فى تقديرو توارى فى عالمه بلا ضجة ولا غم ولا تعقيد للأمور) .

ثم يأتى دور سارتر كبير الوجوديين المعاصرين فيعلن أن الوجودية عنده نوعان وجود ثابت يتمثل فى الأشياء الجامدة، وآخر متغير يتمثل فى الإنسان ويذهب سارتر إلى أن الوجود أصله اللا وجود (والإنسان يحاول أن يوجد نفسه أى يخرج بذاته من اللاوجود .. من الجمود .. من العدم .. فالحركة المستمرة القائمة على حرية الاختيار الإرادى للفعل هى المحاولات اللازمة لتحقيق الوجود) .

وسارتر يرفض كسابقيه من الفلاسفة الوجودية فكرة وجود الله ويحتقر رصيد الفكر البشرى ثم يروح مثلهم يدور فى حلقات مفرغة .

وفى عنفوان هذه الثورة على مقدسات البشر لا يتحرج الوجودى من تسفيه المعانى الكبيرة واهدارها : الدين .. الثقافة .. العقل .. التقاليد الأديان حتى الحب استحال هو الآخر على أيديهم من مشاركة وجدانية مشرقة إلى استمتاع فردى . إلى تبادل منفعة إلى عملية تجارية كل طرف فيها يحاول جاهدا أن يكون هو الرابح على حساب صاحبه (ثم يذهب البائع والمشترى كل إلى حال سبيله) وإلا فالحب هو سقوط الذات لأنها أسلمت مقودها إلى شىء ليست لها إرادة فى اختياره)

وينتهى المطاف بسارتر بعد كل هذا الجهد إلى أن (الإنسان يستحيل عليه أن يحقق ذاته كما ينبغى فيظل هائماً وراء الوجود المثالى الذى يستحيل عليه تحقيقه وذلك هو سر قلقه . . فليظل هكذا مادام كذلك قد وجد)

وبعد : فإذا كان الأستاذ محمد لبيب البوهى قد أخذ بيدنا فى هذه المسالك الوعرة للفكر الوجودى فجنبنا عثرات الطريق فإنه لم يفعل ذلك حبا للمغامرة الفكرية بل ليخرج بنا — بعد أن أخذ منه ومنا الإرهاق الذهنى والوجدانى — إلى النور .. نور اليقين القاطع بأن الوجودية (خيانة للمثل العليا ، والعقل ، والنظام العام ولكل روح كفاحية أو تقدمية . وتحذير مقنع للقوى العاملة ، وإيحاءات جنونية فى وثبات هستيرية من داخل النفس ، وتصميم أحمق على تنفيذ اللا شىء) وهى أخيراً (فرار من كل ما اصطلح الناس على أنه خير وحق وجمال)

وفى الفصل الذى عقده المؤلف عن (سر الوجود كما يراه مارسيل) يرافقه من نقطة الانطلاق لفلسفته الوجودية فمارسيل يعتبر الجسد الإنسانى (الأصل الذى وجدت الذات فيه نفسها .

ومن هذا الجسد بدأ بعد ذلك الانبعاث الخارجى لتحقيق الاتجاهات الوجودية . وحين يحتضن الجسد هذه الذات تتولد الأحاسيس . . أحاسيس لا ترتبط بتجارب ماضية وإنما هى تتدفق تلقائياً أعمالا تملأ فراغ الفلك الوجودى ، وإذن فالوجودية عنده (تتركز تركيزا تاما فى قوة إيجابية صاعدة نحو الذات المطلقة) ويقف مارسيل عند هذا الحد فلا يبين لنا كيف يكون لاتجاه إلى الأعلى ؟ وكيف يكون ذلك الإسراء أو المعراج الوجودى إلى المطلق ؟ . ثم ماذا يقصد بهذا المطلق ؟ .. كل هذه أشياء لا تهم مارسيل فى شىء بقدر ما يهمه أن يحذر حواريه من الاندماج مع الغير حتى لا يفقد الوجودى ذاته فى الزحام .. إنه لا ينكر وجود الناس والأشياء من حول الذات على أن يكون دورها فى حياة الوجودى مجرد أدوات يمارس عن طريقها وجوده !! إن ثمة اتصال بينه وبينها بيد أنه اتصال حسى يتدرج على نحو من الانحاء إلى اتصال عاطفى ! ثم يخطو مارسيل بعد ذلك خطوة مجازفة يقف بعدها حائرا لا يريم . إذ تصدمه مشكلة الخلود فهو يعترف به لأنه يحسه ولكنه لا يجد له تفسيرا . . ويمضى مارسيل وحصاده من رحلته الطويلة الشاقة القلق والعجز والحصر والتمزق الداخلى ؟؟

ويدير المؤلف ظهره لفلسفة مارسيل ليساءل فى فصل (القدر والوجودية) عن موقف الوجودى حين يفشل فى تحقيق ذاته على الصورة التى تمليها عليه دوافعه النفسية .. ما هو تفسيره لمثل هذا الإخفاق ! هل يرجع إلى قوة غالبة على نفسه يسميه بعضهم القدر ويسميها آخرون الله ؟! وبعد أن يكون الوجودى قد أعلن انكاره لوجود الله يقف حائرا لا يجد ما يقول .. وحينئذ لا يسعه الا أن يفر إلى ذاته . . إلى قوقعته النفسية ليمارس فى ظلالها وجوديته الغامضة . . ويجتر فى عزلته مرارة الفشل والقلق والخطيئة !! (وربما كان هذا انتقاما حتميا من الحياة من الذين ينحرفون عن طريقها الطبعى المرسوم .)

ثم يأتى بعد ذلك دور الفيلسوف الوجودى « مارتن هيدجر » ليناقشه المؤلف فيما يقول عن (أهداف الوجود الإنسانى) فيلفت نظره لون من ألوان المثالية يشع فى ثنايا حديثه .. ولكن سرعان ما يكتشف أنها مثالية زائفة لا تنفذ إلى الجوهر .. فالإنسان عنده قد وجد لتحقيق رسالة السمو لكى يحقق وجوديته بالصعود دائما فوجود الإنسان عنده يتحدد من رسالته ووجوده وحده هو الوجود الأساسى فى الكون وما عداه ليس إلا إطارا لنشاطه أو عوامل مساعدة له فى ممارسة وجوده. وإذا أقمنا علاقة تربطه بالوجود البشرى العام أو تربط الوجود البشرى العام بوجوده هو .. وهو لا ينكر أن مثل هذا الوضع ينشىء التزامات معينة على عاتق الإنسان باعتباره مسئولا عن تحقيق ذاته أمام نفسه فى الإطار البشرى العام .

وحين يهم الوجودى بالانطلاق فى سبيله على هذا الضوء الخافت يسارع هيدجر إلى حواريه ليقذف فى قلوبهم الرعب والشك والقلق .. إنه يوهمهم أنهم فى حرب مع الحياة والأحياء .. وأن الطريق ملىء بالأشواك والذئاب والغموض .. واذن فالقلق والإشفاق والخوف وما إليها أسلحه ضرورية ليواجه بها الإنسان الوجودى مصيره حين يمضى فى تحقيق ذاته .

وحين يعن للوجودى أن يتساءل عن المصير . . ولماذا خلقنا ؟ يجيبه « هيدجر » فى بساطة (خلقنا لنموت) والموت فى منطق الوجودى هوة ليس لها من قرار إنه عدم ! ! والعدم مجهول وغامض ومخيف ! !

ومع ذلك « فهيدجر » لا يلبث أن تبعد به شطحاته فنرى له نظرية تقول أن (الإنسان غير موجود ثم يسير وراء دوافعه الذاتية التى عليه أن يتحققها ليصبح موجودا) ! !

ويعلق الأستاذ البوهى على هذا الهذيان الفكرى بتصوير جميل للنفس السوية المطمئنة فيقول (وبينما نحن ، فى هذه الظلمات إذا بالحقائق البسيطة السهلة تسخر منا فإذا كان الوجود الإنسانى هو الشعلة التى أراد الله بها أن يضىء ناحية من الوجود فعلى الإنسان أن يحملها راضيا حتى إذا انتهى فى الطريق إلى المحطة النهائية ووجد هناك من يريد أن يتسلم منه الشعلة ليستمر فى عمله الأرضى ثم يعود هو إلى المكان الذى

ووجوديته من حيث هو مواطن تفرض عليه تبعات فى نطاق الوجودية الوطنية .

ووجوديته كأنسان تلزمه نحو البشرية بالتزامات نحو الوجود الإنسانى السليم) .

أما الوجودى فإن له مفاهيمه ومعاييره الخاصة فالمجتمع عنده خرافة كبيرة يتذرع بها الإنسان الضعيف ليستر بها ضعفه وتميع شخصيته فى شخصيات الآخرين . . لقد عجز عن تحقيق دوافعه النفسية وتأكيد ذاته من بين القطيع البشرى فلم يبق أمامه إلا أن يعترف بهذا الأخطبوط . الذى يسمونه المجتمع وراح يتعبد فى غباء لقواعده ومبادئه وتقاليده ! .

واذن فلكى تكون إنساناً جديرا بوجودك . . حقق هذا الوجود . . اهزأ بالمجتمع . . اسخر من مفاهيمه صعر خدك للناس وافعل بعد ذلك ما يأمرك به هداك !!

وما يكاد الوجودى ينفذ هذه الوصايا الخرقاء فينفض من المجتمع يديه حتى يلقنه كاهنهم الكبير سارتر أنه (لا يوجد لدى الله أى حل لأى مشكلة من مشاكل الوجود لأن الله غير موجود ولأن الحلول الدينية للمشاكل تحد من الحرية الوجودية) ! وإذن فالدين عند الوجودى باطل الأباطيل . . صنعه خيال الإنسان لعله يجد فى رحابه الفرار والسلوى (إذا أصابه مكروه أو ضل فى الحياة سعيه) أما الوجودى فيكفيه أنه عاش حياته طولا وعرضا ومارس حريته دون قيد ولتكن النتيجة بعد ذلك ما تكون قلقا أو ضياعا أو حيرة .

فإذا وضعنا بعد ذلك العقيدة ـ أية عقيدة ـ والوجودية فى كفتى الميزان نرى أن العقيدة تجمع القطيع الضال فى تيه الحياة على طرق مطروقة واضحة وتقوده إلى هدف كبير ومع هذا يأبى الوجودى إلا أن يتنكب الطريق ويصر على أن يضل ويتوه !!

وإذا كانت العقيدة ترتفع بصاحبها إلى الأفق الإنسان الرحب حيث يجد لنشاطه اليومى صدى الأحداث الكونية فإن الوجودى يأبى إلا أن يحبس نفسه فى سجن ذاته ليدمن ممارسة صغائر هابطة ، زينت له دوافعه النفسية أنها جوهر الحياة . . ان اللغة الحسية عنده هى كل شىء ، أما اللغة الروحية فلا شىء على الإطلاق !!